

سوريا في مهب التحولات الدولية .

دراسة جيوبوليتيكية نظرية ..

*جلال خشيب : 2012/08/07



تمهيد :

"من الممكن أن نهاية الحرب الباردة ستعوض بمجموعة واسعة ومتعددة من الحروب الباردة الصغيرة بين القوى الكبرى." ... لقد كان **صامويل هنثيغتون** محقا حينما عبّر بصيغته هذه عن التحديّ الجديد الذي سيواجهه النظام الدولي الجديد المنبثق عن حرب باردة انتهت بانتصار الليبرالية الغربية بترغم مطلق للولايات المتحدة دون أن ينتهي معها منطق التاريخ ، فالديناميكية من خاصية البشر و سيادة الانسان لا تُحجمه عن فعل التنافس و منطق تواصلية الصراع من أجل الاعتراف كما يعبر عن ذلك **إكسيل هونيث** في نقديته الجديدة امتدادا **للنزعة النييتشوية** الراضة لمنطق السكون البشري و القناعة الإنسانية..

فمنذ تفكك المنظومة السوفياتية شهد حقل الدراسات الدولية تحولات كبيرة سواء تلك المرتبطة بالنزعات التنظيرية الجديدة الثائرة على المنظور الوضعي أو بتلك المرتبطة بمنهجية التحليل و مستوياته و أدواته المعرفية .. فمن هذه التحولات أننا أصبحنا نبدي اهتماما أكبر بالأنظمة الإقليمية و مستوياتها التحليلية بدلا من الارتهان لمنطق النظام الدولي الذي كان منطقا متناسبا بحق مع ما شهدته الساحة الدولية منذ الحرب العالمية الأولى من ديناميكية تسارعية .. فانتهاه الحرب الباردة لم يكن في الحقيقة إلا بداية لحقبة جديدة من التنافس الدولي ، إذ لم تكن مقولة النظام الدولي الجديد - بزعامة أمريكية مطلقة- و التي بشر بها **تشارلز كروثامر** إلا وصفا لفترة زمنية قصيرة جدا من بهجة الانتصار ، فلم يكن هذا النظام الجديد إلا مرحلة انتقالية تحولية في مسار بنية النظام الدولي نحو التعدد ، فالافرازات الجديدة للحرب الباردة لم تكن كإفرازات سابقاتها من الحروب ، تحولات بنوية على جميع المستويات ، قوى دولاتية إقليمية ، فواعل غير دولاتية "مايكروسكوبية" مؤثرة ، انتهاء مفعول الثلجة و صعود الأديان و تأثير خطاب الإيديولوجيات ، تفجر النزاعات الإثنية ... إلخ مما جعل كل طرف في هذا العالم طرفا "حساسا" فاعلا و متأثرا في نفس الوقت "مفعول الفراشة" ... كل ذلك ساهم في بلورة جديدة لمفهوم الأمن المتجاوز لمنطق الدولة الصلب ..

و لم تكن منطقتنا العربية إلا ساحة من ساحات هذه الحروب الصغيرة في هذا العالم الجديد إن لم تكن أهم المناطق على الإطلاق ..

1-المستوى الدولي :

لا أحد يساوره الشك في مفتاحية المنطقة العربية بمشرقها و مغربها في مشروع الخطة الأمريكية الكبرى كمنطقة ارتكاز في بعض مناطقها التي غدت جزءا لا يتجزأ من الأمن القومي الأمريكي ، لذا كان أي تهديد أو خطر يمس هذه المناطق يعد بمثابة تهديد للأمن القومي الأمريكي مما يستدعي مواجهته بحزم ، لذا فقد عملت الأخيرة على نسج شبكة معقدة من الحلفاء هناك خاصة منذ الاجتياح العراقي للكويت و الذي زاد قناعة الأمريكيين

في ضرورة التواجد الميداني لقواتهم هناك مما حوّل جزءاً حاسماً من المنطقة إلى ما يشبه بالمحمية الأمريكية العسكرية بحكم الواقع و منطقة عسكرية متقدمة من التراب الأمريكي شنت إنطلاقاً من قواعدها حروبها العالمية على الإرهاب فيما بعد ، تلك الحروب التي سرّعت عملية التحوّل في بنية النظام الدولي ..

في مقال سابق جاء تحت عنوان "فلسفة الإستراتيجية الأمريكية" حاولنا أن نبين في احدى فصوله تلك النزعة الثورية في السياسة الخارجية التي تبنتها إدارة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة منذ أحداث الحادي عشر من سبتمبر محطمين بذلك ما أسميناه "بالستاتيكو المقدس" و ما تبعه ذلك من آثار سلبية على وضع الهيمنة الأمريكي على النظام الدولي المتشكل ، إذ لم تكن حروبهم في أفغانستان و العراق و القوقاز و أزماهم الدولية مع كوريا الشمالية و إيران و في أوكرانيا .. وكذا حروب حلفائهم الاسرائيليين في المشرق العربي " حرب 2006 على لبنان و كذا حربهم على غزة 2008 " إلا على حساب الإرادة الامريكية في إطالة زمن الهيمنة قدر المستطاع ، و بقدر ما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعاني شبح الانفلات كانت قوى أخرى صاعدة من أكثر المستفيدين ، فأى انفلات للهيمنة يعني توجّه النظام الدولي إلى صيغة أخرى أقرب للتعدّد منها إلى الانفراد ، تعدّد تفرضه قوى إقليمية و دولية أخرى بحكم الواقع تقف روسيا و الصين على رأسها و تتدافع فيها أخرى صعوداً على المستوى الإقليمي كالهند ، تركيا ، إيران ، البرازيل و المكسيك .. لذا فقد تعالت أصوات أكاديمية و أخرى سياسية داخل الأروقة الأمريكية بضرورة تدارك الوضع و تصحيح مسار السياسة الخارجية الأمريكية تكتيكياً تناسبا مع هدفها الأكبر .. إدامة حقبة التفوق الأمريكي ما أمكن ..

لقد كانت المنطقة العربية -لأسيما مشرقها- من أكبر المتضررين من هذه السياسة الخارجية الأمريكية الثورية المحافظة الجديدة لكن و بالرغم من الانتهاء الرسمي لحقبة المحافظين الجدد إلا أنّ ملامح سياستهم لا تزال باقية في إدارة أوباما الجديدة ، إذ لا يزال منطقتا الاستقطاب السياسي الإقليمي بطبع المنطقة ، فلا تزال الولايات المتحدة و حلفائها في اسرائيل و الخليج تقف في مواجهة دول مارقة كإيران و سوريا و حلفاءهما في لبنان و الأراضي الفلسطينية المحتلة .. أمّا المستحدث فطراً على مستويين : تنامي الدور

الروسي في علاقاته مع "هؤلاء المارقين" الذين يزدادون تصلبا و عنادا على قلب موازين المنطقة في غير الصالح الأمريكي ثم محاولة كل من تركيا أوغلو و قطر الجزيرة لعب دور إقليمي ما ... مما جعل المنطقة الشرقية بأكملها مخترقة من قبل قوى أخرى غير الولايات المتحدة ، في حين يُخترق غربها "المغرب العربي و كامل افريقيا" من قبل قوة دولية أخرى اسمها الصين ... اذن فكل الجهود الأمريكية في توطيد دعائم تواجدتها الانفرادي هناك عبر شبكة حلفاء دولاتيين "أنظمة عربية حليفة" و غير دولاتيين في هكذا مناطق إرتكازية آيلةً إلى التراجع و الاختراق مما يستدعي ضرورة الإقدام على خطوة حاسمة تقطع الطريق أمام هؤلاء المنافسين الجدد الصاعدين ..

***الثورات العربية و انتقائية التغيير :**

في كتابه الأخير "الإسلام و الصحوة العربية" يذكر البروفيسور طارق رمضان أستاذ الدراسات الإسلامية المعاصرة في جامعة أكسفورد بشيء من التفصيل كيف حاولت الولايات المتحدة الامريكية استغلال الاحتقان الشعبي على أنظمة الاستبداد العربية بعد عقود طويلة من القهر و التدهور الاجتماعي و انسداد أفق الحرية و الديمقراطية التي كانت تدعو إليها الولايات المتحدة و من وراءها هذه الأنظمة و نخبتها السياسية و الفكرية ، و قد مهدت لذلك منذ سنة 2004 من خلال عمليات تكوين شبانية لمدونيين و شباب عرب في مراكز **بوبيوفيتش** "كانفاس" و مثيلاتها في صربيا و ما جاورها ... و قد كانت حادثة الشاب البوعزيزي القطرة التي أفاضت الكأس و أشعلت نار الفتيل لانتفاضات شعبية هدفها الوحيد هو التخلص من طوق الاستبداد السياسي النظامي تأسسا لنهضة بنيوية في هذه المجتمعات .. اذ بدأت الثورة في تونس و انتهت بهروب الرئيس بن علي ، و امتدت لمصر فأسقطت آخر فراعنتها ، اشتعلت في اليمن فأبعدت صالحا و كانت جزرية و عنيفة في ليبيا بعد تدخّل الناتو ... في حين قُفعت في المهد في كل من السعودية و البحرين ، و حاولت بعض الأنظمة السياسية امتصاصها و عزلها مثلما حدث

في الجزائر و المغرب الأقصى .. و قد بدى جليا انتقائية الموقف الأمريكي تجاه هذه الانتفاضات وفقا لمصالحها و مصالح حلفائها ، كما بدى أيضا ذلك التنافس المحموم بين الولايات المتحدة التي تحاول إحداث وضع جديد متحكم فيه لصالحها و بين قوى أخرى على رأسها روسيا في المحافظة على وضع قائم يكفل مصالحها في المنطقة ، و بما أنها خسرت وضعا مناسباً في ليبيا بشكل حاسم و مدّل على يدّ الناتو كذراع عسكري للولايات المتحدة فإنها تأبى اليوم هزيمة مدّلة أخرى في معارقلها العربية الأخيرة سوريا ، و هنا سيتوقف مقالنا قليلا لمحاولة تكوين فهم "فوقوي" لما يحدث على الساحة السورية المشتعلة ...

2- سوريا و التنافس الروسي الأمريكي :

كيف نفسّر ما يحدث على الساحة السورية من تنافس ؟

لماذا كل هذا الدعم الروسي المستميت لنظام بشار الأسد في سوريا ؟

هل ستفقد روسيا آخر قلاعها الحصينة في المشرق العربي ؟

يرى البروفيسور **سانتورو** رئيس معهد الدراسات السياسية العالمية في ميلانو أن الإنسانية في وقتنا الحاضر تدخل مرحلة انتقالية من العالم الثنائي القطبين إلى الصيغة العالمية من تعدد الأقطاب، والتي تبدو -حسبه- أنها تعكس المنطق الهرم للجيوبوليتيكا الثنائية القطبين -أي التيلوروكراتيا في مواجهة التالاسوكراتيا- فبالرغم من سقوط الاتحاد السوفياتي، إلا أن العالم كله لا يزال يحمل الطابع الثابت للحرب الباردة والتي يبقى منطقتها الجيوبوليتيكي مسيطرا... لذا فقد تنبأ الرجل بأنّ العالم سيشهد حروبا من المستوى الصغير و المتوسط ستؤدي إلى تشكيلات جيوبوليتيكية جديدة .

فهل ستكون سوريا ساحة لجرب جيوبوليتيكية جديدة بين الكبار ؟

في الحقيقة لم نجد إلى الآن أحسن من الأنموذج القياسي الواقعي في تفسير ما يحدث من تفاعلات بين القوى الكبرى على الساحة السورية ، فبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها كتب **جورج كينان** سنة 1947 تقريرا للإدارة الأمريكية آنذاك يحاول فيه أن يرسم إستراتيجية متماسكة لمواجهة الحليف السوفياتي القديم و قد عرفت **بإستراتيجية الإحتواء** و هي فكرة جيوبولتيكية محضة تحت الولايات الأمريكية على التمرکز في نقاط معينة من البر الأوراسي سواءً عبر قواعد عسكرية أو أحلاف مركزية أو أنظمة صديقة ، هدفها الأساسي محاصرة "قلب الأرض" الأوراسي و دفعه إلى الداخل ما أمكن تجنباً لتمدده خارج حدوده السياسية تمهيدا لفكيكه من الداخل ... تزامنا مع ذلك صدرت نظرية الواقعي الأمريكي **نيكولاس سبيكمان** عن **حافة الأرض أو الإطار " the rim land "** حيث يشير إلى المناطق -الهلال- التي تحيط بقلب الأرض "الروسي" وتحفه، ولهذا سميت بالإطار أو حافة الأرض، والذي يضم كل من أوروبا البحرية "الغربية" والجزيرة العربية بما فيها العراق والهند وجنوب شرق آسيا ثم الصين وشرق سيبيريا، إنه بعبارة أخرى، الحدود البحرية للقارة الأوراسية من شرق سيبيريا إلى غرب أوروبا .. وتمثل حافة الأرض "الريملاند" المجال المركب الذي يتسم من حيث الاحتمال بإمكانية أن يكون جزءا من التالاسوكراتيا -أي القوة البحرية- أو التيلوروكراتيا - أي القوة البرية- ، وهو المنطقة المعقدة والزاهرة بالثقافة، وتأثر البيئة البحرية "القوة البحرية" في المنطقة الساحلية فتثير فيها التطور الفعال والديناميكي، كما أن للكثلة القارية "التيلوروكراتيا" ضغوطا عليها، وصراع التالاسوكراتيا - **الأطلسية الجديدة** - والتيلوروكراتيا - **روسيا الجديدة** - ، على الريملاند ليس تنافسيا من أجل الاستحواذ على موقع إستراتيجي عادي، وإنما على ما يعتبره **سبيكمان** مفتاح السيطرة العالمية، فحافة الأرض الأوراسية بالنسبة له أكثر أهمية من قلب الأرض " أو لنقل المساحة التي تسيطر عليها روسيا" و من يسيطر على حافة الأرض سيطر على قلب الأرض و من يسيطر على قلب الأرض سيحكم العالم ... و

أخيرا يعتبر **سيكمان** أنّ الريملانديين بمثابة منطقة حاجزة تفصل بين القوى المتصارعة البرية والبحرية، في زمن السلم، كما تعتبر منطقة **التقاء و تصادم** **Crush Zone** بين القوى البحرية والبرية في زمن الحرب ...

بناءً على ذلك فقد عملت روسيا منذ مجيء **بوتن** للسلطة على استدراك ما اعتبره الكثيرون خطأ القرن الإستراتيجي أي قرار **غورباتشوف** بحل الإتحاد السوفياتي ، فمنذ ذلك الوقت و روسيا تعاني أزمة جيوبوليتيكية تهدد أمنها القومي بفعل الإمتداد الأطلسي إلى جوارها القريب ، لذا فالإستراتيجي بالنسبة لروسيا اليوم و الأكثر إلحاحا الآن هو الحرص على تحويل "الأراضي الساحلية" إلى حلفاء لها عبر التغلغل الاستراتيجي إلى هذه المناطق و إقامة أحلاف متينة في مواجهة السطوة و التمدد الأطلسي الجديد ... لذا ينبغي عليها التحرك شرقا و غربا لتحقيق هذا التكامل الأوراسي القاري فيصبح بذلك الريملاندي ضرورة لروسيا لتصبح فعلا قوة جيوبوليتيكية قارية مستقلة ..

لذا فقد حرص الروس على عدم التراجع أو التردد في مواصلة هذه الإستراتيجية الكبرى و التي تتطلب منهم امكانيات ضخمة لتنفيذها ن لذا أولت روسيا منذ مجيء **بوتن** اهتماما كبيرا بتحسين اقتصادها بدلا من تركيز كل الجهود في الصناعات الحربية الثقيلة و قد لاحظ الجميع تلك الديمقراطية الروسية "المضحكة" التي تقوم على تبادل الأدوار و تغيير الواجهة و حسب ، كل ذلك يهدف -في نظرنا- إلى استمرار خطة كبرى معينة أي استراتيجية واضحة في أذهان حكام الكريملين تهدف إلى استرجاع أمجاد روسيا القيصرية و الخروج بها من وضع الدفاع إلى وضع الهجوم لتأمين الأمن القومي الروسي البعيد ...

لقد كانت **الحرب الجورجية الأخيرة** -أوت 2008- مثالا جيدا لما يمكن أن يصل إليه التنافس الجيوبوليتيكي بين روسيا التيلوروكراتيا وأمريكا التالاسوكراتيا و قد كانت ساحتها هذه المرة منطقة القوقاز، فالمشاريع الجيوبوليتيكية والإستراتيجية للقوتين بلغت حدًا من التناقض والتضارب الذي يجعل القنوات الدبلوماسية والسياسية تقف عاجزة عن تجاوزه، ومع ضيق الزمن، وحساسية المصالح وتقلص الخيارات، تبرز الحرب كوسيلة حتمية

ووحيدة لتجاوز هذا التناقض أو بلوغ تلك المصالح، هذا هو *النوموس* الذي خلقه *كلوزفيتز* في مقولته الشهيرة : " *الحرب هي إمتداد للسياسة بوسائل أخرى* " ...

لم تكن الحرب الجورجية هذه، مواجهة مباشرة بين المديان الكبيران، رغم ذلك تعد علامة فارقة وإحدى أهم خطوات الاتجاه نحو الانتصار الجيوبوليتيكي لأحد هذان المديان، فمناستها المحمومة على القوقاز رشّح هذه المنطقة إلى مصاف المناطق الإرتطامية، وكانت جورجيا بذلك-في هذه المرحلة بالذات- بمثابة جسر المرور الأكيد والمجال الحتمي للمعركة الساخنة والباردة بين قطبي القوى والذي لا يمكن لأحدهما أن يصل إلى الآخر إلا بالمرور عبره والتباري في ملعبه .. و قد انتهت هذه الحرب بضربة موجعة وجهّها البر الأوراسي للتلاسوكراتيا الأمريكية و خرجت منها موسكو متنمّرة ، بل جرى الحديث آنذاك أنّ الحرب الجورجية الأخيرة كانت بداية لنهاية الأحادية الأمريكية و تمهيدا لنظام دولي متعدّد الأقطاب تحتل فيه روسيا العائدة مكانة الكبار .. و إذا كانت جورجيا قد احتلت قبل سنوات قليلة مركز التجاذب كمنطقة صدام في عُرف الجيوبوليتيكا فإننا نرشّح سوريا لتكون اليوم ساحة تجاذبات إقليمية و منطقة إرتطام جيوبوليتيكية بين المديان الجيوبوليتيكيان الكبيران .. إذ يرى *سبيكمان* في تحليله من أن مركز الدولة في إطار السياسة الدولية، لا يتوقف من الناحية الجيوبوليتيكية، على موقعها الثابت، وإنما يعتمد أيضا وإلى حد بعيد على علاقة هذا الموقع بمراكز القوى المؤثرة في السياسة الدولية، ولما كانت مراكز القوى هذه في حالة تغير لأسباب عديدة، فإن قيمة الموقع الجغرافي للدولة هو الآخر يتغير، ليس من الناحية الجغرافية، وإنما من حيث طبيعة التفاعلات السياسية، بعبارة أخرى أن التفاعلات السياسية وتغير مراكز القوى الدولية تؤثر على القيمة السياسية للموقع الجغرافي.

و بهذا المفهوم فإنّ سوريا تُعدّ اليوم وفقا للإستراتيجية الأمريكية جزءاً حساساً من حافة الارض لمحاصرة روسيا من جهة الجنوب الغربي و الحيلولة بينها و بين المياه الدافئة لذا فإقامة أنظمة حليفة في مناطق حساسة كهذه - التي تمثل دفاعات متقدمة للأمن القومي الروسي - مطلب أمريكي ملّح .. إضافة إلى ذلك فإنّ سوريا اليوم تُعدّ دولة إرتكازية - **pivotal states** - على حدّ تعبير البروفيسور بول كينيدي في احدى مقالاته عن الإستراتيجية الأمريكية - إلى جانب جورجيا في القوقاز - لذا فأهمية المنطقتين بالنسبة للطرفين يجعل من المنطقتين بالمفهوم الجيوبوليتيكي منطقتي ارتطام ...

فلنأتي الآن لنملئ الفجوات .. في 2011 ألقى البروفيسور نيل فرغيسون أستاذ الدراسات التاريخية في جامعة هارفرد محاضرة في الشاتهام هاوس البريطاني تحت عنوان : " الغرب و البقية ، تحولات ميزان القوى العالمي في المنظور التاريخي " تحدّث فيها عن حقيقة الصعود الصيني و تزايد نفوذه الإقتصادي في إفريقيا و ما يشكله ذلك من تهديد لمصالح الغرب و الولايات المتحدة مستقبلا ، و كما هو معلوم فإنّ القوتين الصينية و الروسية تتحركان بشكل متوازي في الجهة المقابلة للتحرك الأمريكي لذا كان لزاما على الأمريكيين أن يبادروا بالتحرك قبل فوات الأوان ، و هنا نرجع إلى الفكرة السابقة للبروفيسور طارق رمضان حينما نربط هذا الحراك الشعبي و نضعه في قالب بنيوي دولي .. فبعد تحالف دام عقودا من الزمن ها هي الولايات المتحدة اليوم تعمل على فكّ هذا الإرتباط بينها و بين بعض الأنظمة العربية التي رعتها لعقود و الذي أصبح تواجهها اليوم مضراً بالمصلحة الأمريكية في المنطقة لذا فإنّ عملية تحريك توازنات المنطقة و إعادة تشكيل خارطتها السياسية أصبح مطلبا لا بدّ منه و ذلك في منحى يساعدها على تقويض القوى الصاعدة في الشرق لاسيما الصين و كذا روسيا ايضا ، إذ لا يريد الأمريكيين استمرار العلاقات الطيبة بين قوى الشرق و خزان العالم المستقبلي في إفريقيا و مناطق ارتكازها و المناطق التي يتغلغل منها نفوذ الأعداء المنافسين في الشرق "روسيا و الصين" لذا فتغيير الأنظمة في مناطق معينة سيساعد على كبح هذا النفوذ المتزايد لقوى الشرق قبل أن يستفحل هذا النفوذ ... و قد تزامن ذلك مع احتقان الشارع العربي لذا رأت الولايات المتحدة فرصة مواتية في ذلك عليها أن تتخذ معها قرارها الحاسم فراحت

تدعم وتمول ثورات و تفتح أخرى قد تنشب في مناطق حساسة تحميها أنظمة موالية و حليفة أي منطقة الخليج العربي عموما ، السعودية على وجه الخصوص ... و بناءً على ذلك كان سقوط النظام السوري مطلباً أساسياً و ملأ لكل من الولايات المتحدة الأمريكية و حلفاءها الخليجيين و خطأ أمنياً دفاعياً متقدماً و منفذاً استراتيجياً هجومياً لكل من روسيا و الصين ... فهل سيحدث في سوريا ما حدث في القوقاز ؟ هل ستندلع الحرب قريباً ؟ أم أنّ الوضع السوري أكثر تعقيداً و تداخلاً ؟

إنّ الإجابة على مثل هذا السؤال يحتاج منا إلى ومضات نظرية ؟

- إنّ الدول الكبرى لا تفكر في مدى قدرتها على شن الحرب و هزم العدو أكثر مما تفكر في تبعات هذه الحرب و تداعياتها ...

- الدول الكبرى توازن بين الأهداف و المصالح و بين نتائج السلوك السياسي أو قرار الحرب وفق مبدأ **العقلانية** - وإن كانت عقلانية جزئية كما اتفق على تسميتها باحثو العلاقات الدولية - ...

- الدول لا تتردد في الدخول في حروب لو رأت أن نتائجها الإيجابية البعيدة أفضل من النتائج السلبية البعيدة لقرار اللاحرب ...

- الدول لا تتوانى عن خوض الحروب إذا رأت أن أمنها القومي مهدد و مفهوم الأمن القومي في الدراسات الأمنية لا يرتبط بالحدود الجغرافية للدولة و حسب كما هو معروف فلكل دولة أمنها القومي المتوافق مع نطاق تأثيرها و مصلحتها القومية ...

- و أخيراً الدول الكبرى لا تتوانى عن خوض ما يسميه **روبيرت جيلبين بحروب الهيمنة** إذا رأت أن الحرب ستمكنها من انتزاع شاهد الهيمنة من المهيمن فأدركت أن الوقت صار مناسباً وأنّ المهيمن يفقد توازنه و يتداعى .. إذ يرى **جيلبين** أن المحافظة على مكانة الدولة المهيمنة يتطلب منها مصاريف هائلة للدفاع عن مواقعها، الأمر الذي

يتم على حساب النمو الاقتصادي، هذا ما يعني أن قانون نسب النمو المتفاوتة (الغير متكافئة) يلعب عاجلاً أم آجلاً في صالح القوى الثانية والتي إن قدرت إحداها أن هذا النظام لا يلعب في صالحها وأن الفائدة المنتظرة تكون عبر تغيير هذا الوضع القائم فإنها لن تتردد في منافستها للقوة المهيمنة الشيء الذي ينتج عنه ما يعرف بحروب الهيمنة و هي كما يعرفها بأنها: "حرب لا تتمحور فقط حول محاولة تحقيق أهداف مباشرة بل لامتداداتها وتحدياتها ذلك أنها تمس كل الوحدات الدولية المكونة للنظام".

لذلك فإن حرب الهيمنة هذه هي عبارة عن حرب شاملة هدفها وضع أسس جديدة لنظام دولي جديد، "صراع الهيمنة الذي ينتج عن اختلال التوازن المتزايد بين ما تملكه الدولة المهيمنة من إمكانيات وبين ما يتطلب من إمكانيات من أجل الحفاظ على النظام، هذا ما يؤدي في النهاية إلى ميلاد نظام دولي جديد".

انطلاقاً من هذه الومضات النظرية النيواقعية يمكن القول أن الأزمة السورية بتعقيداتها الإقليمية تعدّ ساحة حقيقية لانبثاق نظام دولي جديد ، فالولايات المتحدة تلعب اليوم دور المهيمن في حين تلعب كل من روسيا و الصين دور المتربص بتراجع هذا المهيمن ، فالخسائر الكبرى التي منيت بها الولايات المتحدة منذ إعلان مشروع القرن الأمريكي على أيدي المحافظين الجدد و الاضطرابات الإستراتيجية التي أحدثتها هؤلاء في غير الصالح الأمريكي جعل الولايات المتحدة اليوم في حالة اضطراب و تراجع نسبي ، و سمح في الوقت ذاته لكل من القوى الصاعدة أن تحاول إيجاد موطأ قدم مناسب لمكانتها الإقليمية أو الدولية ، فالتحالف الضمني بين روسيا و الصين تجاه الأزمات الدولية الكبرى سيصنفهما حتماً للعب دور القوى المتربصة التي لن تتوانى في اختيار الوقت الحاسم لإحداث التغيير في بنية النظام الدولي بإعتبارها قوى تعديلية كما يصفها الواقعيون الهجوميون ، لكن كون الساحة السورية منطقة ارتطام جيوبوليتيكية كما قلنا لا يعني بالضرورة أن تكون ساحة لحرب مباشرة بين القوتين الكبيرين هناك فليس الأمر بهذه البساطة ، فمبدأ العقلانية كما أشرنا يقطع الطريق أمام نشوب حرب مباشرة لا يمكن

التنبؤ بتداعياتها ، **فالأوقعية لا تعني التهور كما يقول كينجر** ، فمنطق الردع النووي أو حتى الردع التقليدي لا يسمح بالحرب المباشرة - **منطق العقربين في زجاجة كما يصف كلوزفيتز** - خاصة في منطقة حساسة جدا متشابكة الأزمت ... إذن ما نتحدث عنه هنا هو ما يسمى في أدبيات الدراسات الدولية بحروب **الوكالة** ..

3- المستوى الإقليمي :

في حالة ما إذا سقط النظام السوري - المتصدّع - :

هل ستضم سوريا إلى قائمة الدول الفاشلة " failed states " ؟
و بالتالي هل ستحوّل سوريا إلى مصدر للأمن في المنطقة ، مصدرا مُصدّرا لمخاطر و تهديدات عديدة على دول الجوار ؟
هل ستفقد إيران عمقها الإستراتيجي في المنطقة ؟
هل سيحمل سقوط النظام السوري أولى بوادر الثورة الملوّنة الجديدة في إيران ؟
أم سيكون ذلك عاملا مشجعا على التفكير الجدّي في حرب جديدة في المنطقة في مواجهة إيران بعد إحكام الطوق الإستراتيجي عليها ؟

لا تزال منطقة "الشرق الأوسط" تعاني إلى اليوم من تبعات سقوط النظام العراقي بعد الغزو الأمريكي للعراق سنة 2003 ، إذ تحوّلت العراق إلى ساحة حقيقية لصراع مصالح إقليمي لعب فيه التآجيج الطائفي الديني المتعمد دورا فعّالا في كسب هذا الطرف أو خسارة ذلك نقاطا على حساب الآخر ، فبعد أن استعملت السعودية و دول الخليج نظام صدام حسين لجعل العراق بوابة متقدمة لحماية أمن المنطقة ممّا أسموه بالمدّ الشيعي الصفوي منذ الثورة الإسلامية الخمينية في إيران ، ها هي تصطف إلى جانب الولايات

المتحدة سنة 2003 لإسقاط هذا النظام الذي صار يشكل تهديدا مباشرا لمصالحهم لا يقل عن التهديد الإيراني و ذلك منذ اجتياحه للكويت سنة 1991 ، لكن ما لم يحسب له هؤلاء بمساهماتهم الفعالة في إسقاط نظام صدام حسين سنة 2003 هو تسليمهم لبوابتهم القديمة لعدوهم و منافسهم القريب إيران في طبق من ذهب فقد فتح سقوط النظام دولة العراق لتمارس فيها إيران نفوذها التي لم تحلم به يوما ، لذا تطلب ذلك من زعماء الخليج بذل مزيد من الإمكانيات للإبقاء على نفوذهم هناك حمايةً لأمنهم الإقليمي مما حوّل العراق إلى ساحة لتجاذبات إقليمية بين القوتين مزقت حضارة بابل العريقة و حوّلت العراق إلى دولة فاشلة مصدرّة لمختلف المخاطر و التهديدات الامنية لكامل دول الجوار الإقليمي ..

لا نعتقد أنّ عرب الخليج يتعلمون من دروس التاريخ أو لنقل أنهم ينسونها بسرعة أو بعبارة أدق فقد حسموا خيارهم الإستراتيجي منذ بناء أول قاعدة عسكرية أمريكية هناك ، و ها هم اليوم يجتهدون لإسقاط النظام السوري بنفس الطريقة التي أسقطوا بها غريمهم الأول ... إذ تشهد المنطقة اليوم مناخا شبيها بمناخ ما قبل سنة 2003 ، عمليات شيطنة لنظام الأسد ، دعم خصومه في الداخل ، فتاوى سياسية جاهزة تستبيح دماء الأسد و أعوانه ، تمهيدا لقرار الحسم الذي يصطف فيه هؤلاء إلى جانب حليفهم الأمريكي لإسقاط النظام السوري بطريقة ما .. و إذا كان عرب الخليج لا يستنبطون من دروس التاريخ عبرا و فوائد فإنّ الأمريكيين أكثر حذرا من هؤلاء ، إذ سيعدّ هؤلاء حتى الألف قبل اتخاذ أي قرار رسمي بتدخل عسكري أطلسي في سوريا للأسباب التي وضعناها نظريا و تطبيقيا في الفصل السابق .. لذا فعملية حصر البدائل و قياس نتائجها كما تطرحه مقاربات اتخاذ القرار في السياسة الخارجية تبدو عملية صعبة جدًا و معقدة بالنسبة للولايات المتحدة وإذا استبعدنا قرار التدخل المباشر كما حدث في ليبيا فإنّ عملية التفتيت من الداخل بأيدي غير أمريكية سيكون الأنسب و سيحمل الربيع العربي بشرى سارّة للسوريين ، و من هنا جاء خيار دعم المعارضة المسلحة في الداخل كأحسن بديل مطروح

في هذه الآونة بعد أن مهّد له "الأصدقاء الخليجين" بأموالهم و ألقوا بفتاوى شيوخهم وسط العامة من الشعب لذا ينبغي على أي متتبع حاذق أن يقرأ كلّ تأجيل طائفي عبر فتاوى السوء في هذه المرحلة بالذات من مسار الأزمة السورية بإعتباره ليس إلاّ امتدادا طبيعيا لصراع استراتيجي يحكمه عامل المصلحة بين قوتين إقليميتين في المنطقة "السعودية و إيران " ، سيكون الدين إذن -قياسا على مقولة كلاوزفيتس الشهيرة- امتدادا طبيعيا للسياسة بوسائل أخرى ... فكما ذكرنا أنّ سوريا ستحوّل إلى ساحة تجاذبات إقليمية حادة و مسرحا لتحقيق الأفضلية الأمنية للأمن القومي المتقدم لكل القوى الأطراف المتنافسة سواءً دولية متمثلة في " الولايات المتحدة و روسيا " أو إقليمية " السعودية و حلفاءها في مقابل إيران التي ستجد نفسها معزولة إقليميا و هذا هو المقصد الأوّل من إسقاط النظام السوري ... فهو -إقليميا- مجرد مرحلة تكتيكية لهدف إستراتيجي يستهدف إيران ، و هنا نعيد التذكير بتنافس إقليمي آخر مترابط بين الإيرانيين و الإسرائيليين ، **الأولى كقوة إقليمية طامحة لاكتساب مزيد من القوة حسب تعبير جون ميرشايمر عن هدف الدولة ، و الثانية كقوة إقليمية تسعى بكل طريقة لحفظ البقاء حسب تعبير كينيث والتز "فبعد هدف البقاء قد تتعدّد أهداف الدول بأشكال متنوعة "** ، فسقوط النظام السوري سيفقد إيران عمقها الإستراتيجي في المنطقة و يجعلها دولة حبيسة من ناحيتها الجنوبية و يغلق قنوات الاتصال بينها و بين حليفها في جنوب لبنان حزب الله كحليف متقدم على تراب عدو إسرائيلي منافس و سيحوّل سوريا إلى دولة عازلة -لصالح إسرائيل- كالأردن تماما و هذا يتطلب جهودا حثيثة لبثّ الاستقرار ما أمكن في سوريا قبل أن تتحول إلى دولة فاشلة مصدرة لأشكال لا متناهية من المخاطر و التهديدات على الإسرائيليين ، إذا فرهان الولايات المتحدة و حلفاءها في المنطقة يدور حول ردّ الفعل الإيراني بعدما يجد الإيرانيون أنفسهم في وضع حرج معزولين ، قد يكون البديل العقلاني المتاح أمامهم هو إعادة التفكير الجديّ في مشروعهم النووي و الكف عن لعب دور الممانع الشرعي للشيطان الأكبر فيحفظوا لأنفسهم الاستقرار و لنظامهم التماسك ... فهل سينحو الإيرانيون

هذا المنحى في المستقبل القريب أم سيتمسكون بمطالبهم الشرعية النووية ليلعبوا وقتهم الأخيرة داخل التراب السوري طمعا في حفظ نفوذهم هناك كما فعلوها في العراق ؟ سيكون ذلك مرهونا بالخارطة السياسية التي ستنبثق عنها الساحة السياسية ما بعد نظام الأسد الآيل إلى التصدع و السقوط ...

لن نغادر هذا المستوى التحليلي حتى نشير في عجالة إلى ثلاث قوى إقليمية تنامي تأثيرها في الآونة الأخيرة أو سيتنامى قريبا :

الدور القطري عبر قناة الجزيرة الإعلامية كدور مكمل و متكامل مع الدور السعودي .. النشاط غير المسبوق للسياسة الخارجية التركية تجاه المنطقة .. و أخيرا الدور الذي ستلعبه مصر الجديدة ..

لقد كان لكل من القوتين الأولى و الثانية تأثيرا متباينا على الأزمة في سوريا و على الحراك الشعبي الحاصل عموما منذ ثورة الياسمين في تونس ، إذ حاولت دولة قطر المجهرية أن تلعب دورا إقليميا كبيرا من خلال القوة الإعلامية التي مثلتها قناة الجزيرة التي بدى في الآونة الأخيرة بشكل لا يدع مجالا للشك أنها أصبحت امتدادا طبيعيا للسياسة الخارجية القطرية ، فالموارد التي تملكها هذه الدولة في حجمها الصغير و حسن استغلال هذه الموارد سمح لها بأن تكون طرفا فاعلا في القضايا الإقليمية ، و إذا كانت توجهات سياستها الخارجية تصب في نفس الاتجاه السعودي على العموم إلا أنها في الحقيقة تسعى للعب دور منافس للسعوديين في مجلس التعاون الخليجي ، كما أنها تبدو أقل معارضة و أكثر حماسة للصعود الإخواني الإسلامي في العالم العربي أكثر من السعودية مركز السلفية و الوهابيين الحامي الداخلي للنظام السعودي و الذي يمنحه شرعية البقاء ... و هنا تتقاطع كل من قطر و تركيا ، فلا شك أن تراجع التيارات السلفية في العالم العربي لصالح غريمها الاسلامي الأول الإخوان المسلمين سيضعف التأثير السعودي على المنطقة

لصالح التأثير التركي - القطري ، ما يهنا هنا هو أثر هذا التنافس و تقاطع المصالح على ما يحدث في سوريا اليوم فإن التقى الجميع حول ضرورة رحيل نظام الأسد فسوف يختلفون عن طبيعة البديل وولاءاته و اتجاهاته الخارجية و إن كان الجميع يعمل لقطع الطريق أمام إيران في سوريا فإنهم سيتنافسون لأجل تشكيل خارطة السياسة الجديدة التي سينبثق عنها سقوط النظام السوري القائم ..

أما بخصوص مصر الجديدة بقيادة الإخوان المسلمين فلا شك أن الموقع الجيوستراتيجي لمصر سيدفعها -بغض النظر عن يحكمها- إلى لعب دور ما في القضايا الإقليمية العالقة ، و إن كانت القيادة الجديدة ستحاول الحفاظ على شيء من الإستقرار مع محيطها الإقليمي و كذا في علاقتها مع الولايات المتحدة حتى تتمكن مصر أن تتعافى داخليا قبل أن تجازف بأي دور إقليمي قد يجلب عليها المتاعب في هذه الآونة الحرجة ، فإننا لا نستبعد أن يكون لمصر الجديدة دور فعال في معادلة التنافس الإقليمي ، لذا فإن المنطقة ستشهد تغيير في ميزانها الإستراتيجي ببزوغ خمسة قوى إقليمية مؤثرة لن يساوم أي منها على مكانته المستحقة في خارطة الغد : السعودية ، إسرائيل ، مصر ، إيران و تركيا ، لذا بإمكان مصر الجديدة أن تلعب الدور الذي لعبته بريطانيا في حقبة ما من تاريخ أوروبا لتكون حاملة الميزان الإستراتيجي في المنطقة ، كما بإمكانها أيضا أن ترّجح كفة هذا الطرف أو ذاك بشكل حاسم في حالة ما إذا حسمت خيارها الإستراتيجي مستقبلا ..

بديلا عن الخاتمة :

لا يمكن بأي حال من الأحوال فهم ما يجري داخل كرة البيلياردو السورية دون الاستناد إلى كل ما ورد سابقا ، و مع الانفلات الأمني الذي يشهده الداخل السوري اليوم و فقدان النظام السوري شرعيته لدى أغلب الأوساط باعتباره المسؤول الأول عما أوصل سوريا إلى هذا الوضع كونه نظام سياسي مغلق يتغذى على القهر و يعيش على الاستبداد السياسي فقد أصبح الكل يحاول ركوب انتفاضة السوريين كل حسب مصالحه الأمر الذي أغرق سوريا في الدماء مما أعاد إلى الأذهان السؤال الذي كان يطرحه الجزائريون أثناء العشرية السوداء "من يقتل من؟" ، إلا أنّ الوضع هناك أكثر تعقيدا و تداخلا ، فلا يكفي تسليط الضوء على القشرة الصلبة لكرة البيلياردو و لا على بنية النظام الدولي و تعقيدات المصالح الإقليمية لتكوين فهم متكامل إذ علينا فهم التركيبة الإثنية بكل ما يحمله هذا المصطلح من معنى واسع -جميع خطوط الاختلاف و الانقسام البشري- حتى نفهم التركيبة المابين ذاتانية في سوريا... نخشى أن تتحوّل اللعبة في سوريا إلى لعبة صفرية فمكاسب طرف لن تكون إلا مغرما للطرف المنافس ... لذا فالحلول التوفيقية ستكون صعبة جدا لكنها الحل الوحيد لتلاشي حرب مقبلة لو اشتعلت ستغيّر وجه المنطقة و لا أحد بإمكانه أن يتنبأ بانعكاساتها على بنية النظام الدولي في حالة تداعياها و انفلاتها فقد تفتح ملفات اخرى بين المتنافسين الدوليين و الإقليميين إما تحجما للأزمة قبل تحولها لحرب ضروس أو ابتزازا و محاولة للحصول على مكاسب من جهة اخرى بين هؤلاء المتنافسين ...

لذا ينبغي على النخبة السورية الجديدة التي سترسم مشهد الحياة السياسية هناك أن تكون واعية لهذه التحديات و أن تسعى جاهدة لتكون عاملا مستقلا في المعادلة لا عاملا تابعا فيها تتجاذبه التيارات الإقليمية و الدولية لتجعله يصطف هنا أو هناك ، ينبغي على شرفاء سوريا أو يغتتموا محورية دولتهم و مكانتها الإقليمية و محلها من التنافس الدولي

القائم ليستثمروا في ذلك لمصلحة دولتهم بشيء من البراغماتية الحميدة بدلا أن يحولوا سوريا إلى ساحة لتصفية حسابات إقليمية و تحقيق مصالح دولية لن يكون لسوريا أي نصيب منها على المدى البعيد ..

***جلال خشيب باحث مهتم بالدراسات الدولية و الإستراتيجية ، الجيوبوليتيكا و الفلسفة السياسية ، جامعة منتوري قسنطينة / الجزائر .**

المراجع المعتمدة :

- 1 -دوغين ألكسندر، أسس الجيوبوليتيكا، مستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، ترجمة: عماد حاتم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى 2004 ، بيروت-لبنان .
- 2 فهمي عبد القادر محمد، المدخل إلى دراسة الإستراتيجية، دار مجدلوي، الطبعة الأولى 2006، عمان-الأردن.
- 3 -صافي عدنان، الجغرافيا السياسية بين الماضي والحاضر، مركز الكتاب الأكاديمي، الطبعة الأولى أوت 1999، عمان-الأردن.
- 4 -الذيب محمد محمود إبراهيم، الجغرافية السياسية، منظور معاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السادسة 2005، القاهرة-مصر .
- 5 - مصباح عامر، الاتجاهات النظرية في تحليل العلاقات الدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الأولى 2006، الجزائر.
- 6 خيل فرغيسون ، الغرب و البقية تحولات ميزان القوى العالمي في المنظور التاريخي ، ترجمة جلال خشيب ، موقعنا الخاص : <http://philopoliticsbridges.yolasite.com>
- 7 جلال خشيب ، فلسفة الإستراتيجية الأمريكية ، مجلة الفكر الحر الإلكترونية، العدد 110 .
- 8 -مناظرة بين البروفيسور طارق رمضان و السيد سرجيا بوبوفيتش مدير مركز العمل غير العنيف و الإستراتيجيات التطبيقية في صربيا "كانفاس" .

<http://www.youtube.com/watch?v=wG5s62aV370&feature=share>

- 9- Russia in the Islamic World , Sergey Markedonov , **national interest** , June 27, 2012

<http://nationalinterest.org/commentary/russia-the-islamic-world-7126>